فى اشتقاق كلمة صوفى

ردا على الاستاذ مرجليوث

بقلم الأستاذ

محمد لطفى جمعه

(الاستاذ لطفى جمعه)

يظهر ان كلمة « صوفى » اثارت جدلا كبيرا فى الهيئات العلمية المختلفة ؛ بدليل ماوردنا من رسائل متعددة الوضع ؛ متباينة الفكرة ؛ وكنا قد كتبنا ردا طويلا على العلامة مرجليوث ؛ قصدنا به إلى تدعيم رأينا من غير مانحيز أو تعصب ؛ وفى رفق ولين ، ولكن الرسائل التى وصلتنا - وجلها إن لم يكن كلها - شديد اللهجة ، اضطرتنا للا كتفاء بتقديم رد حضرة الاستاذ الكبير محمد لطفى جمعه على من عداه ، حيث جمع فى رده بين الطريقين ووفق بين أسلوبى أصحاب الردود .

والاستاذ لطفى جمعه ؛ كاتب من أكبر كتابنا الممتازين ؛ الذين لهم جولات صادقات فى ميادين العلم والأدب والاجتماع والثقافة على تباين فروعها .

ويعد الاستاذ جمعه ، زعيم من زعماء المدرستين القديمة والحديثة معا .

وإذا كان القراء يرون فى أسلوبه شيئا من الشدة فرجع ذلك لا إلى تعصب فى الرجل - كما يبدو لاول وهلة - وإنما يرجع إلى يقين الاستاذ بما يقرر .

وقديما قال افلاطون تليذ سقراط « إنى أحب سقراط ، ولكننى أحب الحق أكثر منه » المحرر

قد اطلعت مصادفة على ملاحظة الأستاذ مرجليوث على البحث القيم الممتع الذى استوفاه الأديب الفاضل السيد عبد العزيز مصطفى الأسلامبولى فى كلمة صوفى . وكان السيد عبد العزيز قد عدد آراء تسعة فرفض الثمانية واستصوب واحداً وهو اشتقاق الكلمة العربية من كلمة يونانية معناها الحكمة . ويظهر أن الأستاذ مرجليوث ينكر ذلك ، ويأباه ، ولكن فى غير صراحة ، ولذا نراه ذكر مراجع ومصادر على صورة يسمح لنا بالقول بأنها غير مستقيمة فتراه مثلا ذكر نص ص ١٦٢ من كتاب الولاة وكتاب القضاة تأليف ابى عمر محمد بن يوسف الكندى المصرى مهذبا ومصححا بقلم رفن كست

Rhuvon Guese طبع بيروت سنة ١٩٠٨ وليدن سنه ١٩١٢ من ضمن كتب إحياء ذكرى جيب وهو « وظهرت بالاسكندرية طائفة يسمون بالصوفية (في الاصل : الصوفية . واتبعنا الخطط ج ١ ص ١٧٣) يأمرون بالمعروف فيما زعموا و يعارضون السلطان في أموره فترأس عليهم رجل منهم يقال له أبو عبدالرحمن الصوفي »

ذكر هذا النص ولم يذكر نص صفحة ٤٤٠ من الكتاب نفسه وهو :

« كان عيسى بن المنكدر يقرأ وكانت طائفة قد أحاطت به يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فلما ولي القضاء كانت تأتيه وهو في مجلس حكمه فتقول « أيها القاضي ذهب الاسلام افعل كيت وكيت ، فيترك مجلس الحكم و يمضي معهم فكلمه إخوانه مثل ابن عبدالله الحكم وغيره فقال لابد من القيام لله عز وجل بحقوقه » وادعى أن الكندي أبدى رأيا (ماهو ؟) وأراد أن يؤيده بما ورد في « مروج الذهب للمسعودي » فأورد استدلال يحيى بن اكثم على كون الرجل صوفيا من أن «عليه ثياب بيض غلاظ مشمرة » وصور لنا ذلك الصوفي في هيأة الرجل الشجاع الذي يدخل على المأمون للمناظرة ، وان هذا الطلب وحده دل يحيى على أن الرجل صوفيا ، وأن الرجل بعد أن حادث المأمون عاد إلى رفاقه وقال لهم ملخصاً مقابلته مع المأمون « إنه ضبط أمر المسلمين حتى تأمن سبلهم و يقوم بالحاج و يجاهد في سبيل الله و يأخذ للمظلوم من الظالم ولا تتعطل الاحكام فاذا رضي المسلمون برجل فاجتمعوا عليه سلم إليه الامر وخرج إليه منه » فلما سمعوا « تقريره » عن مقابلته المأمون قالوا : ماترى بهذا الامر بأسا وافترقوا . وذكر خبر المقدسي وغيره يؤيد به أن كلمة صوفية مشتقة من صوف . وهو بذلك يرغب أن يبعدهم عن كلمة الحكمة (صوفيا اليونانية) التي ردها العالم الاديب الاسلامبولي إليها ، و يريد أن يجرد هذه الفرقة المنتمية إلى الاسلام من صفة الحكمة والفضيلة . . وتمثل فيما تمثل به بنص للجاحظ أدخل فيه الصوفية في أهل النقص فقال « اذا كان المسلم فشلا يبغض العمل تظرف وأظهر تحريم المكاسب وعادسائلا وجعل مسألته وسيلة الي تعظيم الناس له »

وفي هذا النص (ص ١٠٣ ج ١ من الحيوان) أن الشخص الذي كان يستميل الناس بلبس الصوف هو النصراني دون الصوفي المسلم. فهو ضد مرجليوث ، لانه كان يقول إن لبس الصوف هو العلامة الوحيدة التي يتميز بها الصوفي المسلم ، واستشهد بالكندي والطبري والمسعودي والاغاني والمقدسي وغيرهم ، فلما أورد نص الجاحظ رأى أنه ضده لأنه يخص النصارى المترهبين بلبس الصوف وهو الذي نشاهده عند القساوسة من فرنسيسكان ودومنيكان وغيرهم .

أما الصوفيون فقد ذكرهم الجاحظ بغير اشارة إلى ثيابهم التي تميزهم ، وكان

الأولى بالاستاذ مرجليوث أن يحذف هذا النص من قائمة أمثلته ، ولكنه ذكره لحاجة فى نفسه ، وهى أن الجاحظ جعل الصوفية من أهل النقص ، وقد لفت هو نظر القارىء الى تلك الملاحظة وفسرها وأيدها بقوله « و يطابق ذلك ما أخبر به الكندي والمسعودى من معارضتهم أمر السلطان » وكأن الأستاذ مرجليوث يعتبر معارضة أمر السلطان نقصاً ، حتي ولو كانت المعارضة فى المظالم . ونحن نعجب من رأى كهذا عند رجل يعيش بين أمة أشهر صفة من صفاتها القومية معارضة أمر السلطان فيما لا يتفق مع المصلحة العامة والعدل والانصاف ، وكنا نعتقد أن الاستاذ مرجليوث يعتقد رأياً عكسياً وهو أن معارضة أمر السلطان فى الرذائل من الفضائل والكمالات وليس نقصا . غير أننا بالرجوع إلى نصوص الكندى والمسعودى تبين أن الكندى ذكر عنهم الامر بالمعروف والنهى عن المنكر قبل ذكر معارضة السلطان ، و يفهم من سياق الحديث أن معارضة السلطان هى فى ذلك يعنى أنهم يطلبون اصلاحا . أما نص ص ٤٤٠ فهو فى هذا المعني أظهر وأوضح ، فانه لما ولى عيسى بن المنكدر القضاء كانت تأتيه جماعة الصوفية فى مجلس حكمه فتقول « أيها القاضى ذهب الاسلام ! فعل كيت وكيت ، فيترك مجلس الحكم و يمضى معهم (للنظر فى شكايتهم) فكلمه إخوانه مثل عبدالله الحكم وغيره (أى نهوه عن القيام مع الصوفية للنظر فى ظلامتهم ولأحقاق ما يرونه حقا) فقال القاضى لأخوانه : لابد من القيام لله عز وجل بحقوقه .

وظاهر من هذا النص أن الصوفية كانوا يعينون القاضى على القيام بحقوقه اليه عز وجل ، وليست هذه من صفات أهل النقص ، وليس اذن خبر الكندى يؤيد تهمة الجاحظ اياهم بأنهم طائفة من أهل النقص كاليهود الذين يتنسكون فيبالغون فى السبت أو النصاري الذين يترهبون ! بل أكثر من هذا ، فقد روي الكندى نفسه أن الصوفية أتوا القاضى عيسي ابن المنكدر وقالوا « ان أمير المؤمنين (المأمون) قد ولى أبا اسحاق بن الرشيد مصر ، وإنا نخافه ونخشى ان يشد على يد أهل العدوان (ان يكون عونا لأهل الشر) فاكتب لنا كتابا الى المأمون بأنك لا ترضى بولايته . » فاقتنع ابن المنكدر برأيهم وفعل ماطلبوا اليه و بلغ الكتاب المأمون فأحضر أبا اسحاق فقال : ما الذي فعلت فى أهل مصر ؟ اه (من ص ٤٤٠ للكندى)

وهذا النص نفسه يدل أيضا على شدة اهتمام الصوفية باستقامة الوالى ، وهذا الاهتمام لا يصدر عن نقص ، واذن فهو لا يؤيد الجاحظ .

وأما خبر المسعودى الذى يريد الاستاذ مرجليوث أن يقنعنا بأنه يؤيد الجاحظ فى وصفه إياهم بالنقص ، فقد جاء فيه وصف الصوفية بأنهم جماعة شبه سرية لهم رقابة معنوية على الخليفة

أوفدوا واحدا منهم ليتفاهم معه، فلما ناظره (وهو صاحب الثياب الغلاظ المشمرة) واقتنع بصلاحه واستعداده للتنازل عن الامر، اذا تقدم له من هو أفضل منه ، عرض حاله على رفاقه الذين كانوا ينتظرونه فى المسجد فأعرضوا وتفرقوا. فأين هذا من النقص الذى ألصقه الجاحظ بالصوفية اعتباطا أو انتقاما لأنهم من فرقة غير فرقته ، وطار به الاستاذ مرجليوث فرحا ؟

و بناء على ماسبق ذكره يمكن الاستاذ مرجليوث الى اشتقاق الكلمة من الصوف « وليس فى ذلك ما يدل على انهم ادعوا حكمة ينتسبون اليها » وهذا بيت القصيد ومربط الفرس ، وغاية الغايات عند الاستاذ الذي يريد اقصاءهم عن الحكمة اليونانية و يرجعهم الى شكل الثياب .

وهذه شنشنة نعرفها من أخزم ، فليست هذه هى المرة الأولى التى يخالف فيها الاستاذ مرجليوث الحقيقة للانتقاص من قدر الاسلام والمسلمين ، فقد سبق له أن وضع كتابا فى ترجمة النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو حلقة من سلسلة « أبطال الأمم » . وبدلا من أن يسلك مسلك الأنصاف والحايدة والبعد عن الغرض فى سرد تاريخ النبي وأعماله وانتقاد مايرى انتقاده بالاسلوب العلمي ، تراه جعل من كتابه حملة شعواء على الاسلام ونبيه فاتهم الاسلام بالتعصب الذميم (ص ٢) وأن الاشهر الحرام لم يكن المقصود منها الحج و زيارة الاماكن المقدسة ولكن غايتها الحصاد وتناسل الانعام، وان سوق عكاظ كانت مكانا للفسق والاختلاط بالنساء ، وان محمداً صلي الله عليه وسلم ورث عن والديه بنية قوية تجعله يحتمل المتاعب ، ولكنه كان مصابا بالصرع (ص ٤٥)

فانظر التناقض بين قوة البنية والصرع !! واستدل على اصابة النبي بالصرع من إغمائه فى موقعة بدر ويوم أن كان صائما فقصد (عن المسند ج ١ ص ١٤٨) . ولم يدرك مرجليوث ان الاغماء فى ذاته لايدل على الصرع، ولكنه يدل على انتهاك القوى اوضعف عضوى في القلب ، وكلاهما لا يضير المصاب بهما . فانتهاك القوى طارىء على كل انسان وكذلك ضعف القلب أما الصرع فداء يدل على مرض فى العقل، و ينتهى دائما بالجنون فى حين أن (جاورز) كتب فى (ص ١٣٠) من كتابه : ان أعراض الصرع لم تكن موجودة عند النبي وهى معروفة للخاص والعام، واهمها عض اللسان ، وانبساط اليد فيقع منها ما كان بها (أى اليد) وانحطاط العقل بالتدريج.... كل هذه الاعراض الطبية العلمية لم يكن النبي مصابا بها ولا بواحد منها، ولم يعلم ان حالة منها قد حدثت له ، وقد كان اعداؤه — وكلهم من الاقوياء — واقفين له بالمرصاد ومتربصين لأى نقص يعتوره فيذيعوه ، ولم يكن هذا الداء الوبيل ليخفى عليهم .

وادعى مرجليوث أيضا انه جاء من اسرة وضيعة (ص ٤٧) مع ان اسرة هاشم كانت اعظم فرع من دوحة قريش ، وقريش كانت أعظم قبيلة فى العرب . وادعى أن سدانة الكعبة لعبد المطلب أسطورة وليست حقيقة تاريخية (ص ٤٨) وأن الفيل الذي ساقه أبرهة على الكعبة كان اسمه

محمودا وقد سمى النبي باسمه لانه ولد فى تلك السنة عام الفيل (ص ٥٠) وأنه اعتبر الكلاب نجسة لانه كان يبغضها (ص ٥٣) وأنه لابد سافر عن طريق البحر لورود وصف سفر البحر في القرآن (ص ٥٧) وأنه سافر الي مصر لان كلامه عن مصر يدل على معرفة تامة بها (ص٥٧) مع ان (نولدكه) وهو مستشرق هولندى وليس من أصدقاء الاسلام ذكر في مذكراته حرف c ج ٢ : ان محمداً لم يكن يعلم ان المطر قليل في مصر قلة مطلقة ، ولو كان سافر اليها لعلم تلك الحقيقة التي لاتخفى على أحد ممن يزور مصر . وأنه انتقم لجهله الشعر والكتابة بوضع القرآن على أسلوب السجع (ص ٦٠) وأنه كان شديد الطيرة (ص ٦١) مع أن الاحاديث الصحيحة تثبت أنه يكره الفأل والشؤم و ينهي عنهما . وأنه كان يتقاضي أجرا من الملذوع الذى يشفى بقراءة المعوذتين (ص ٦٢) وأنه صار رئيس لصوص أو قطاع الطريق Captain of Banditti (ص ٦٣) وان العناية بنفسه والمحافظة على حياته كانتا أكبر همه (ص ٦٥) وأن القرآن مكتوب بلغة تجارية لأن صنعة محمد كانت التجارة، حتى اعلان رأى المؤمنين فى اختياره ، سماه مبايعة (ص ٦٩) وكان الاسلام فى بدايته نواة لجمعية سرية ، وان محمداً كان بطيئا فى الكلام ولم يكن حاضر البديهة (ص٧٢) وانه لم ينتحل النصرانية لانه كان وطنيا لايقبل ان يدخل نيراً اجنبيا فى وطنه (ص ٧٧) وان محمداً كان يعتقد ان جودا (يهوزا الاسخريوطى) هو الذى صلب ،وان النبي الصادق انتصر ونجا ، وهو يتفق في هذا الرأى مع طائفة الجولبانية ، (ص ٧٨) وكان فى بعض الاحيان ينطق بالفحش (ص ٨٣) وان أبا بكر و إن كانت له قيمة لا تقدر إلا انه لم يكن شريكا فى الجريمة Complice (ص ٨٠) أى جريمة خداع العالم ، وان طريقة محمد في اظهار الوحى مثل طريقة الخواجا (! !) جوزيف شميث الغشاش المسيحي (ص ٩١) ولا فضل لمحمد فى ايمان خديجة ، لأن ابن عمها ربما كان جهزها للثورة على عبادة الاوثان التي كانت فى مكة (ص ٩٣) يعنى أن محمداً لافضل له حتى فى التأثير فى زوجته الاولى التي كانت تحبه حبا فائقا والتي كان يحبها ، وقال : انها لوعاشت ماتزوج من سواها (راجع حديث عائشة فى البخاري « أتفتأ تذكر تلك العجوز من قريش الخ ») وأن عثمان لم يسلم الا لأنه احب رقية بنت النبي وأراد زواجها فجعل الاسلام ثمنا لذلك .

والكتاب يقع فى خمسماية صفحة ، وهذا بعض ماجاء فى مائة منه ، فما بالك بكل ما ورد فيه من الخازي والمساوىء المكذوبة الدالة على تعصب مرجليوث و بغضه الاسلام وحقده عليه وحملته على رسوله وعلى أنصاره ؟ والرجل يحقد على الاسلام من قديم الزمان

محمد لطفى جمعه